سلسلة تعال نتعارف مع الحيوانات

٥

الجمل العربى

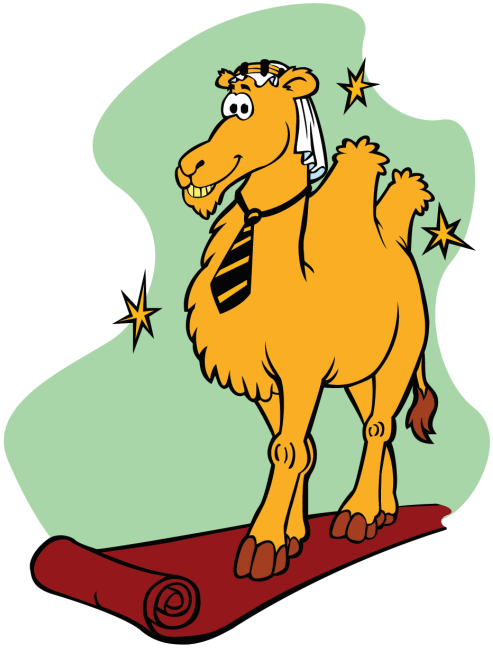

بقلم:

د. مصطفى فايز

أتشــرف بتـقــديم نفــسى إِليكم أنا الجــمل العربى...

أنا لا أريد أن أطيل عليكم، فـــأنتم الآن فى عصر السرعة، ومشغولون جداً، ولذا فسأختصر وأنا أقدم نفسى. أنا مخلوق مكرَّم من خالقى سبحانه وتعالى، يظللنى بحمايته ويجيرنى بسلطانه، وهو جل جلاله وعظيم سلطانه جعل لكم فىَّ نعمًا كثيرة، فأنا إِن حملت أُثْقِلت، وإِن مشيت أبعدت، وإِن حلبت أرويت، وإِن وصفت لمرض شفيت، وإِن مُلكت أغنيت، وإِن سابقت

أفـرحت ، وإن نـحـرت أشـبـعت ، وإن تعـرض صاحبى لخطر بعيد أنذرت ، وإن هوجم من قريب دافعت ، بى تحقن الدماء ، وتدفع مهور النساء ، وأنا ثروة الآباء ، وعز الأبناء ، وكرامة الوجهاء ، وعطاء الكرماء ، وفخر الأمراء ، فسبحان خالقى الذى جعلنى آية من آياته ، ودليلاً على عظمته سبحانه .

أنا الذى قال عنى صاحبى العربى وهو يشكر الله سبحانه على أن أنعم عليه بالمال . أرجوك لا تنس أن الجمال هى المال وهى العز وهى الغنى .

جـعل الإِلـه طعـامنا فى مـالنا

رزقًـا تضـمنه لـنا لـن ينفـدا

ضـمنت لنا أعـجازهن قـدورنا

وضـروعهن لنا الـلبن الخالصا

ولا تنس أن هذا العربى الأبى كان يدافع عنى ويحـمينى ويدافع عن نفـسه وعن أرضـه وعن حـياضـه، وكـان صـاحبى العـربى هذا يحـذر مما يحدث الآن من عدم الحمية ومن ضياع الكرامة ومن عـدم الدفـاع عن العـز ومن قـوة الأعـداء وتملكهم لأراضيكم.

والحقيقة أنه لم يكن ينتظر حتى ينتصر أعداؤه ويملكوا، بل كان يحذر دائمًا من مجرد عمل يعمله أعداؤه يؤثر -ولو من بعيد- على كرامته.

.. فقد كان شامخ الأنف مثلى وكان يسمينى أنوف العز.

وكان يقول رحمة الله عليه:

هيهات لا مال من زرع ولا إِبل

يرجى لأولادكم إِن أنفكم جُدعًا

ولكى أقدم نفسى إِليكم تقديمًا صحيحًا، يجب أن أذكر اسمى ولكن.. عندى مشكلة

كبيرة، فأنا لى أكثر من ألف اسم، وكل اسم له سبب ومعنى، وهذا راجع طبعًا إلى غنى لغتكم العربية. ولكى لا أطيل عليكم فلن أذكر لكم إلا سبعة فقط من أسمائى المشهورة التى فيها دلالة علىَّ، وإشارة لبعض صفاتى المهمة، أو لأن فيها إيضاح لهويتى المتميزة. والأسماء التى اخترتها لكم هى: الجمل والناقة والإبل والبعير وسفينة الصحراء ومعجزة الصحراء وعطية الله. فتعالوا معى إلى رحلة سريعة مع هذه الأسماء السبعة:

١- الجمل: الجمل هو الذكر من الإبل والجمع جمال، وقد ذكر القرآن بأن فينا جمالاً فى قوله

تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦] والإراحة هى رد الإبل بالعشى إلى منازلها. وسمى المكان مراحًا لأن الإبل تراح إليه عشيًا حيث تأوى، بينما تسرح إلى المرعى فى الصباح، ونحن معاشر الجمال عند رواحنا بالعشى إلى الأفنية والبيوت يسمع لنا رغاء، حيث يجاوب بعضنا بعضًا، ونتبادل معلوماتنا، ويحكى كل واحد منا الأحداث التى حدثت له فى اليوم التالى والمشاهد التى شاهدها، ويسعد أربابنا بهذا المشهد الجميل،

وتتجمل به الأفنية والبيوت، خاصة أننا رجعنا من المرعى وقد امتلأت بالعشب البطون، وحفلت باللبن الضروع.

والعرب يعتبروننا جمالاً وزينة، وهذا صحيح ومتوافق مع التعريف الحديث للجمال؛ فالجمال عند أهل الفنون هو وجود الشيء المناسب فى المكان المناسب، وأنتم تلاحظون أن شكلى العام، بتضاريسى ومرتفعاتى ومنخفضاتى، مناسب تمامًا لشكل الصحراء وجبالها ووديانها، ولكن يجب أن تلاحظوا أيضًا أننى

لست ديكوراً فقط أو جمالاً جميلة فى صحراء كبيرة فقط، بل إن شكلى وتركيبى مناسب أيضًا لأعمالى ووظائفى، فأنا جمل جميل ولكننى نافع ومفيد، ومن اسمى هذا اشتقت الأعرابية الذكية نصيحة غالية لابنتها المقبلة على الزواج فقالت لها كلمة صارت مثلاً بين العرب: يا بنيتى تجملى وتعففى. وتجملى تعنى كونى كالجمل فى صفاته من صبر وصمت ورضا وقناعة حتى تستطيعى أن تحتملى مشاق الحياة الجديدة. وتعففى يعنى اشربى العفافة، والعفافة

هى آخــر حليب الناقــة، وآخــر حليب الناقــة يحتوى على نسبة عالية من الدهون الأساسية غير المشبعة والفيتامينات المهمة، وكلاهما يعطيان للوجه صباحة وإشراقًا وللجسم صحة ونشاطًا، وتقصد الأعرابية أن تكون ابنتها جميلة دائمًا فيسعد بها زوجها.

وإن كان هناك من يعتقد أن اسم الجمل مشتق من الجميل. والجميل هو الشحم المذاب وذلك لما أتميز به من اختزان الشحم فى سنامى، ثم إذابته وقت الشدة والجوع والعطش.

ولأن اسم الجمل يطلق على الذكر فقط، فلذا يقال للرجل الذى يحتمل الصعاب والمشقات ويصبر على ذلك: رجل جمل أو رجل مثل الجمل. وتقول الأرملة الحزينة على زوجها الذى كان يحبها ويحامى عنها ويكفيها مؤنتها ويقضى حاجاتها: لقد مات جملى ولاجمل لى بعده ولاجمل مثل جملى، وهى هنا استعارت اسمى بدلاً من اسم زوجها حتى تضفى عليه الكثير من صفاتى المتميزة.

٢- الناقة: الناقة هى أنثى الجمل، والجمع نوق، وعلى فكرة: الناقة تعرف كيف تكون

أنثى بحق، ولكن ذلك يكون فى موسم التكاثر، وهى تفخر بين النوق صويحباتها بذلك، وتجدها تهز ذيلها هزاً مميزاً فى موسم التكاثر، ويعرف صاحبها العربى الخبير نجاح لقاحها من تصرفها وسلوكها بعد اللقاح، ولذا أنتم تقولون فى أمثالكم: استنوق الرجل، إذا تصرف تصرف النساء فى أمور كانت تتطلب تصرف الرجال، وهذا لا يحدث عندنا، فالجمال جمال والنوق نوق، والعلاقات بيننا علاقات صحيحة.

إلا أن زوجتى الناقة كثيراً ما تحب الفخر، ومعها حق، وتذكرنى بأنها الحيوان الوحيد

الذى ذكر فى القرآن منسوبًا إلى الله سبحانه وتعالى، هى دائمًا تقول لى هناك حيوانات كثيرة عاشت وماتت لا يدرى بها أحد، وهناك حيوانات كان لها شخصية متميزة وحققت ذاتها مثل: هدهد سليمان، وحوت يونس، وغراب ابنى آدم، وكلب أهل الكهف، لكننى أنا ناقة الله.. أنا شىء آخر، أنا مذكورة فى سورة الأعراف مضافة إلى الله عز وجل، معجزة للناس، وقد أمروا أمرًا قاطعًا بترك إيذائى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. ومذكورة أيضًا فى سورة

الشمس (آية ١٣) حيث يحذر رسول الله صالح بنفسه أن يقترب أحد من الماء الذى أشرب منه ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، وتذكرنى ناقتى دائمًا بالآية ٦٤ من سورة هود عندما يقول صالح لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ﴾. وتقول لى: أنا ناقة الله.. أنا آية الله.. إن رسل الله يأمرون الناس بحمايتى وأنا أمشى فى أرض الله باسم الله، وعندما قلت لها: سيدتى، لست أنت الناقة المقصودة، قالت لى بغضب: ألا تفهم إشارات

القـرآن، ألا تفهـم تعليـمـات الأنبـيـاء فى العناية بنا؟ ثـم أضـافت: ولا تنـس أننى من أحـفـاد هذه الناقـة، ثـم هددتنى من طـرف بعـيـد وقـالت لى: إِياك أن تنسى أنه لما ظلم الكفـار جدتى وعـقروها وعـصـوا أمـر ربهم دمـدم عليـهـم الله بذنبـهم فسواهم بالأرض.

٣- البعـيـر: والبـعـيـر يقـال للجـمل، وللناقـة، ويقـال أيضًـا لكل مـا يحـمل، ولـكنه ارتبـط بى أكـثـر من أى حـيـوان لأننى أقـوى على حـمل الأثقـال، ويـقـال لكل مـا يحـمل بالعـربيـة، وتجد

اسمى هذا فى القرآن فى سورة يوسف ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] وفى ذلك إشارة إلى أنه حمل كبير وجائزة عظيمة.

٤- الإبل: الإبل، جمع لا مفرد لها، وهى مؤنثة، لأن التأنيث لازم لأسماء الجموع التى لا واحد لها فى لفظها كما تعلمون، وأنا أفخر بهذا الاسم أكثر من أى اسم آخر، لأنه عندما جاء فى القرآن جاء فى معرض التذكرة لكم؛ بما أنعم الله عليكم به يا أبناء آدم؛ من نعم كبيرة ومنافع عظيمة وآيات معجزة، وكنت أنا أول

هذه النعم ذكراً. لقد جاء ترتيبى فى هذه الآيات الكريمة قبل السماء التى رفعها الله فوقكم لتظلكم، وقبل الأرض التى سطحها الله لكم لتمشوا فيها وتبتغوا من رزقه، وقبل الجبال الكثيرة التى نصبها الله فى أنحاء الكرة الأرضية ميزانًا وتقديراً.. يا أبناء آدم، يا أبناء إِسماعيل، يا أمة محمد، يا أمة القرآن؟

اقرأوا سورة الغاشية ثم انظروا إِلى وتأملونى. النظر إِلىَّ والتفكر فى معجزاتى عبادة لكم، تثابون عليها، انظروا إِلىّ لعلكم تقدرون الله حق

قـدره.. اقـرأوا مـعى ﴿أَفَلا يَنظِرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت﴾ [الغاشية:١٧].. ولاحظوا أن (أفـلا) - هنا- اسـتنكارية بمعنى: كـيف لا ينظرون إِلى الإِبل وما فيها من عجائب الخلق، وغـرائب الصنع، وعظمة التـميـز، وإِعـجـاز الخلق؟!!

٥- سفينة الصحراء:

نعم، أنا سـفـينة الصـحـرا ،ء أحـملكم فى الصحـراء، وأحـمل أثقالكم من بلد ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ..﴾ [النحل:٧].

والتشابه بينى وبين السفينة كبير ، فأنا أحمل راكبى وأقطع به المسافات الكبيرة فى الصحراء الرهيبة ، والسفينة تسهل على ركابها الانتقال فى البحر الكبير وقطع المسافات الطويلة .

وأنا عندما أمشى أستطيع أن أحرك كلتا قدمىّ على جانب واحد من جسمى ثم قدمىّ الأخريين ، وبذلك أتهادى وأتمايل فى مشيتى كما تتهادى وتتمايل السفينة وهى تمشى بمجاديفها . . مرة يمنة ومرة يسرة .

وأنا المنقذ لصاحبى وحامل متاعه وشرابه فى

الصحراء المقفرة الشاسعة، والسفينة كذلك فى البحار الموحشة المظلمة.

٦- معجزة الصحراء:

هذا الاسم ينطبق علىّ تمامًا، أنتم تعلمون أن الحياة أصلاً معجزة، والمعجزة الأخرى أن الكائن الحى يشرب ويأكل وينتج ويتناسل ويكبر ويموت.. أنا الجمل العربى معجزة فى كل هذا، إن مجرد وجودى فى الصحراء معجزة حقيقية واقعة أمام أعينكم، لقد جعلنى ربى خادمًا لكل من يعيش فى الصحراء، وجعلنى كذلك معطاءً

لكل من تظله السماء وتقله الغبراء.. خلقنى لكم ولم ينسنى، بل زودنى بمعجزات تعيننى على العيش فى الصحراء، إن شربى للماء معجزة، فيمكن أن أشرب أكثر من مائة لتر ماء فى مرة واحدة، ويمكن أن أشرب من الماء ما يساوى ثلث وزنى، ولا تتقطع أمعائى ولا تنفجر خلايا دمى، أنتم بنى الإنسان من يشرب منكم خمسة لترات ماء مرة واحدة لابد أن يموت فى الحال. وأنا أيضًا أصبر على انقطاع الماء أيامًا عديدة، ويمتد صبرى أسابيع، وقد أظل أكثر

من شهر بدون ماء.. وهذه معجزة أتميز بها، وهى نعمة علىَّ من ربى خصنى بها دون باقى مخلوقاته.

أنا أيضًا معجزة فى أكلى، انظروا ماذا آكل، أنا آكل الشوك والحطب والخشب، وأعطيكم اللحم واللبن والجلد والوبر، صحتى تتحسن عندما آكل الخشب والحطب والأشواك، وأنتم تمرضون من أكل الفطائر والحلوى واللحوم، أليست هذه معجزة وعبرة؟ كيف أهضم هذه الأشياء التى آكلها؟ أنا شخصيًا لا أعرف، لكن

أنت سيدى ومالكى.. يجب أن تعرف، فأنا مخلوق لك ويجب أن تفهمنى وتحافظ علىّ، وأن تنظر إلىّ نظرة الرحمة والحب والفهم. إن بعض الأغنياء من قلة فهمهم يستزيدون مما يأكلون من كافيار واستاكوزا وجمبرى.. طلبًا للقوة الجنسية، أما أنا فأستطيع أن أكون جملاً بحق وأسعد سبعين ناقة، كل ذلك دون أن أهتم بالغذاء أو الماء، فالحمد لله على نعمه علىَّ. على فكرة.. ستعود كل ناقة من هذه النوق بعد أن يحول عليها الحول إلى صاحبى وحوارها خلفها،

وعند ذلك يسعد بى صاحبى، ويعرف أننى فحل صالح وضارب ناجح، وسيعتمد علىّ فى هذا العمل سنين طويلة.

على فكرة.. إن طول حياتى الجنسية أيضًا معجزة، وطول عمرى أيضًا معجزة. هل تعرف حيوانًا آخر يخدم صاحبه عشرات السنين. كم عمر البقرة؟ أطول عمر لها عشر سنين؟ أنا أطول الأنعام عمراً، بالرغم من شظف العيش وقسوة الصحراء وحر الرمضاء وقلة الغذاء وندرة الماء الذى ينزل من السماء أو تجود به

الصحراء، انظر وقل لى يا خليفة الله فى الأرض، ألست فى كل هذا معجزة؟ يا سيد مخلوقات الله انظر إِلىَّ بعين الرحمة مرة.. وانظر إِلى بعين الفهم مرات. ألست مخلوقًا أستحق رعايتك وعنايتك؟ لست أقول لك هذا من أجل نفسى، بل أقول لك هذا من أجلك أنت . فأنا عطية الله لكم، ويجب أن تستفيدوا منى أكثر من هذا، فإِن كثيراً من أسرارى لم تعرف بعد.. وكثير من كنوزى لم تكتشف بعد، وإِذا اكتشفتموها فستجدون فيها عطاء وغنى، فأنا عطية الله لكم، وهذا أحسن اسم من أسمائى.

٧- عطية الله :

كما ترى فإن اسمى هذا فيه دلالة على عظم الهدية، لأن عظم الهدية من عظم المهدى، كما أن فيه دلالة على حب الله لصاحبى العربى وعنايته به إذ أهدانى له أنا الجمل العربى وجعلنى خادمًا معطاءً له فى الصحراء الجرداء، ولا أطلب منه الماء ولا الغذاء ولا الإيواء، بل أفترش أى أرض غبراء وألتحف أى سماء علياء.

وبعد أن عرفتم اسمى، اسمحوا لى بأن تتعرفوا على رسمى، وجسمى، أنا ضخم

الجسم، قوى البنيان، طويل العنق، طويل القوائم، كبير الرأس، ومع ضخامتى وقوتى فإن تفاصيل أعضاء جسمى وتكوينها مناسبة لأداء وظائفها، وفيها لطائف كثيرة تأخذ بالألباب.

انظر إلى عينىّ الكبيرتين تجدهما جميلتين واسعتين، قويتى البصر، تسمحان لى برؤية مجال واسع حولى، وإذا دققت النظر قليلاً، فإنك ستجد عينين محاطتين بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانهما القذى والرمال، وبين عينى وبين جفنى وهب لى ربى جفنًا ثالثًا نصف

شفاف، فإذا اشتد ضوء الشمس استطعت أن أمشى وأنا مغلق العينين، وإذا اشتدت العواصف الرملية وهاجت ريح السموم استعملته كما تستعملون أنتم مسَّاحة السيارة أثناء المطر، ومشيت بصاحبى فى قلب عواصف الصحراء.

انظر إلى أذنىّ تجدهما صغيرتين، قليلتى البروز، يكتنفهما الشعر من كل جانب، ليقيهما الرمال التى تذروها الرياح، وأنا أستطيع أن أثنيهما وأجعلهما يلتصقان برأسى عند هبوب العواصف الرملية.

وأنا لى منخران يتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر أيضًا، حافتاهما لحمَّيتان كالشفتين، فإذا ثارت العواصف الرملية أغلق عينىّ، وأطبق أذنىّ وأقفل منخرىّ، وأمضى فى طريقى لا أبالى، ولذا فأنا محصن من الأمام، ومحصن أيضًا من الخلف، فذيلى يحمل على جانبيه شعرًا يحمى أجزائى الخلفية الدقيقة من قذائف الرمال.

وقوائمى طوال ترفع جسمى بعيدًا عن الأرض الساخنة، كما أنها تجعلنى واسع الخطو، خفيف

الحركة، وفى قدمىَّ إِصبعان، تنتهى كل واحدة منهما بظلف صغير كأنه الظفر، وهذان الإِصبعان يغلفهما جلد غليظ مرن، وتحتهما وسادة عريضة ليِّنة من الدهن والألياف، وهذه الوسادة تتَّسع عندما أدوس بقدمى على الأرض، وتسمى نهاية قدمى هذه بالخف، وأخفاف أقدامى هذه تحمى قوائمى من أن تسيخ فى الرمال الناعمة، وأنتم قد أخذتم من شكل قوائمى هذه فكرة القوائم الخراسانية أو الحديدية التى ترفع المبانى الضخمة الثقيلة، فأسميتم

العمود الخراسانى ذا القاعدة بعمود خف الجمل، ولكن اسمحوا لى أن أقول إِن خفى يتميز عنه بالمرونة، كما أن خفى يتميز عن حوافر البقر والماعز بأنه لا يتلف التربة أو الزرع.

ومما يناسب ارتفاع قوائمى: طول عنقى، حتى أستطيع أن أتناول طعامى مما ينمو على الأرض ومن الأشجار العالية. وعلى فكرة.. أنا أحب النباتات الصحراوية والأعشاب الجافة وأستمرئ النباتات الشائكة، فشفتى العليا غليظة ومشقوقة ومهيأة لهذا العمل.

وقوائمى الطويلة هذه تتميز أيضًا بالقوة، وهى تحمل جسمى الكبير الثقيل بسهولة ويسر، وعندما أبرك كى أستريح يعتمد جسمى على وسائد من جلد قوى سميك على مفاصل أرجلى التى أرقد عليها، ولكننى فى الحقيقة أرتكز بمعظم ثقلى على كلكلى(صدرى) فهو مركز ثقل جسمى. وهذه الوسائد وهذا الكلكل الذى يرفعنى يمكِّنُنى من البروك فوق الرمال الخشنة الساخنة، دون أن ينال منها أذى، وفى نفس الوقت تسمح بمرور الهواء حول جسمى المرتفع قليلاً عن الأرض.

إِن تركيب جسمى كله رائع، وكذلك تكوين أعضائى رائع وبديع، ولكن اسمح لى بأن أعرفك على بعض قدراتى التى وهبها الله سبحانه لى، وجعلتنى مخلوقًا متميزًا، آسف بل جعلتنى مخلوقًا متفرِّدًا يزداد الناظر إِلىٍّ إِيمانًا وتسليمًا، ويزداد المتفكر فى خلقى علمًا وحكمة.

سأحكى لك قدرتين عجيبتين عندى؛ أولاهما: قدرتى على تحمل العطش، وثانيتهما: قدرتى على تحمل الحر. وسأحكى لك باختصار

عنهما حتى تزداد معرفة بى، وتزداد حبًا لخالقى العظيم، الذى خلقنى لك، وملكَكَ زمامى، ثم جعل جهدى وقوتى ووَبَرى وجلدى ولحمى ولبنى لك.. لك وحدك، لعلك تحمد ولعلك تشكر، ولعلك...

أولا: قدرتى على تحمل العطش:

أستطيع أن أتحمل العطش أيامًا طوالاً، وعدد هذه الأيام يتوقف على الظروف والأحوال مثل طبيعة الغذاء الذى آكله ومقدار جفافه، ومدى إجهادى فى الحمل والسفر، ودرجة حرارة الجو ونسبة الرطوبة فيه.

ففى شهور الشتاء وعند توافر النبات الطرى، فأنا لا أشرب عادة، فأنت تعلم كم أنا قنوع؟ وعندما يكون الجو حاراً فأنا أكتفى بالشرب مرة كل أسبوعين، أما إذا كان الجو شديد الحرارة نهاراً وليلاً فإننى لا أحتاج إلا إلى نحو ٢٥ لتراً من الماء كل خمسة أيام.. يعنى صفيحة ماء واحدة.

لاحظ يا صديقى أنه إذا اشتد الظمأ بى فإنى أفقد من الماء ما يزن ربع وزنى، بل ربما ثلثه، ولكنى أمضى فى طريقى صلداً قوياً لا تخور

قـواى، طبـعًـا أنت تعـرف أن هذا شىء خـارق، يعنى إِذا كان وزنى ٦٠٠ كيلو جرام فإِننى يمكن أن أفـقـد ٢٠٠ كـيلو جـرام، لازلت أسـيـر بك وأحـمل لك أثقـالك، وإِذا كـانت ناقـتى مـعك فإِنهـا ستعطيك لبنًا يروى ظمأك وهى ظمآنة، ويسد جوعك وهى جوعانة، لكنهـا بفعلها هذا سعيدة فرحانة.

وما فقدته من ماء أستطيع أن أعوضه فى دقائق معدودة، وآخر رحلة لى كانت فى الصحراء ولما اشتـد بى العطش اتجـهـت نحـو رائحـة الماء، ولما

وجدت الماء شربت أكثر من مائة لتر فى أقل من عشر دقائق، ثم حمدت الله على نعمة الصبر على العطش، ثم حمدته على نعمة الارتواء بالماء. والحقيقة أنك تعلم جيداً كم هى نعمة عظيمة، فأنت أيها الإنسان العظيم إذا عشطت ثم شربت مثلى دفعة واحدة ففى الغالب أنك ستمرض، وسيحتاج جسمك إلى وقت طويل حتى يستعيد توازنه ولكى يوزع الماء فى جميع أنسجتك بانتظام، وأنت أيها الإنسان العظيم إذا كان وزنك مثلاً مائة كيلو جرام وفقدت ١٠

كيلو جرامات فقط من العطش، فمعنى هذا أنك قد أشرفت على الهلاك -هذا إذا لم تكن قد هلكت فعلاً- أتعرف لماذا لا أموت أنا من العطش فى الصحراء حتى لو فقدت مائة كيلو جرام من وزنى؟

سأحكى لك بعض فنون اقتصاد الماء التى فطرنى الله سبحانه عليها، وسأقول لك بعض أسرارى وإن كنت أنا متأكد أنك تعرفها، فأنت سيدى الإنسان قوى الملاحظة، شديد الذكاء، ولكننى سأقولها تذكرة لنفسى بنعمة ربى علىَّ

وتذكرة لك بأننى مخلوق متميز، جعلنى الله فى خدمتك، فلعلك تنظر إِلىَّ نظرة الرعاية، ولعلك لا تهملنى.. فقد مسنى السوء من طول إِهمالك لى.

أنا يا سيدى أستطيع أن أقطع ألف كيلو متر فى الصحراء دون أن أشرب، أستطيع أن أقطع هذه المسافة وأنا أحملك إِلى بلدك، وأستطيع أن أقطع بك مسافة أبعد إِذا كنت أحملك إِلى مدينة رسول الله ﷺ.

ولكى أتحمل قلة الماء فى الصحراء، فإِننى لا

أتنفس من فمى أبدًا ، ولا ألهث ، مهما اشتد الحر ، وبذلك أتجنب تبخر الماء من تجويف فمى الكبير ، أنا أمتص معظم الماء من أمعائى ؛ ولذلك تجد بعرى جافًا ، ويزداد جفافه بازدياد عطشى ، لزيادة امتصاصى للماء ، ثم إن لى كليتين قادرتين على إخراج بول شديد التركيز بعد أن تستعيدا معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم ليحفظ لى الحياة بإذن ربى ، ويساعدنى على ذلك أن البولينا «اليوريا» وهى المادة الصلبة الرئيسية الذائبة فى البول -تخرج منى عن

طريق المعدة ثم مع البعر . طبعًا سيدى الإنسان تعلم أن هذا تميَّز وتفرد لى لا يملكه مخلوق آخر سواى، وهو خروج البولينا مع البراز؛ لأنه فى كل المخلوقات التى أعرفها فإن البولينا تخرج مع البول، وإذا احتبست فى الدم لفشلٍ فى الكليتين.. فمعنى هذا أن هذا المخلوق سيموت من تسمم بالبولينا فى الدم، ولكن عندى يتغير الموقف وتخرج البولينا من الدم إلى الكرش ويتخلص منها الجسم بخروجها مع البعر. لاحظ يا سيدى أن هذا التنظيم يسمح للكليتين أن

تتفرغا لإخراج الأملاح الزائدة التى أضطر إلى تناولها مع النباتات الملحية ومع الماء الملح الذى قد أضطر لشربه من مستنقع شديد الملوحة. ولو أن إنسانًا شديد الظمأ اضطر أن يتجرع ماءً ملحًا لعجل ذلك بهلاكه، فالحمد لله الحمد لله، على هذا التفرد والتميز، ولعل الذى يفسر بعض السر فى صبرى على العطش أكثر من الإنسان مثلاً هو أن أخطر ما يتعرض له الإنسان العطشان هو أن نسبة الأملاح فى دمه تقل حتى يغلظ الدم ويبطؤ دورانه، فلا تتوزع الحرارة المتولدة فى

أنسجة جسمه، ومن ثم ترتفع درجة حرارته بطريقة لا تتحملها أجهزته، وخاصة دماغه، وفى هذا يكون حتفه! ولكن فى حالتى أنا ولتميزى وتفردى فإن معظم الماء المفقود من جسمى فى حالة عطشى يُستمد من أنسجة الجسم كلها، ولا يستنفد من ماء دمى إلا جزء قليل، فيظل دمى بما يحتويه من نسبة عالية من الماء قادراً على امتصاص حرارة جسمى وتبريد أعضائى، خاصة دماغى الذى يحتوى على المراكز التنظيمية الهامة. ولازال هناك الكثير

من الأسرار التى يمكن أن تفسر قدرتى على تحمل العطش، ولكننى أعرف أنكم مشغولون ولا تحبون الكلام الكثير.. ولذا فسأنتقل إلى الموضوع الثانى.

ثانيًا: قدرتى على تحمل الحرارة:

الحقيقة أن جهاز ضبط حرارة جسمى جهاز فريد، فريد، فريد. فهذا الجهاز عندك أنت يا سيدى مثلاً، فائق الحساسية، ولذلك يكلفك فى الحر عرقًا كثيراً للحفاظ على درجة حرارة جسمك عند ٣٧ْم. وذلك لأنه إذا ارتفعت درجة

حـرارة جسـمك وزادت سـخـونة دمـاغـك ، فـقـد يحدث احـتـبـاس حـرارى ، وتحـتـاج إلى كـمـادات باردة وماء كثير لتبريد جسمك . أما جهاز ضبط حرارة جسمى فهو جهاز عجيب ، وأيضًا غريب . فـمثـلاً إذا شـربت من الماء مـا يكـفـينى فإن الجهـاز يبـاشر عـمله المعتـاد ، فلا تتـفاوت حـرارة جسـمى بين نهـار الصـحـراء الحـارق وليـله القـارس إلا فى حـدود درجـتين أو ثـلاثة . أمـا إذا عطـشت واشـتـد الحـر عـدَّل مـركـز تنظيـم الحـرارة مـسلكه ، وأبدى تسـاهلاً كـبـيراً حتى يصبح مدى تفاوت درجات

الحرارة فى جسمى نحو سبع درجات كاملة بين ٣٤ْم فى الصباح الباكر ونحو ٤١ْم ظهراً، وتصبح هذه كلها حدوداً طبيعية. وهكذا تعظم سعة جسمى فى تخزين الحرارة، فلا أعرق، إلا إذا تجاوزت حرارة جسمى ٤١ْم، ويكون هذا فى فترة قصيرة من النهار. أما فى المساء فإننى أتخلص من الحرارة التى اختزنتها فى النهار، وذلك بإشعاعها أو توصيلها إلى هواء الليل البارد دون أن أفقد قطرة ماء .ثم إن لهذا التدبير اللطيف أثراً آخر وهو أن الجسم كما تعلم

يكتسب حرارة من الوسط المحيط به بقدر الفرق بين درجة حرارته ودرجة حرارة ذلك الوسط، فلو أن جهاز ضبط الحرارة عندى كان جامداً و «روتينيًا» لأصبحت درجة حرارتى ثابتة دائمًا، ليلاً ونهاراً، ولكان الفرق بين درجة حرارتى ودرجة حرارة هجير الظهيرة كبيراً، مما يجعل جسمى يمتص من الجو المحيط بى مقداراً كبيراً من الحرارة، ولكن عندما ترتفع درجة حرارتى بمرونة وتنظيم جهازى الغريب العجيب إلى ٤١ْم يصبح هذا الفرق قليلاً ومن ثم يصبح ما يمتصه

جسمى من الحرارة قليلاً، وهذا الجهاز هو أحد أسرار قدرتى العجيبة على تحمل الجو الحار. لكن هذا السر وإن كان أوضح بعض القدرات إلا أنه يزيد من عدد التساؤلات التى تحتاج إلى إجابات، ومنها أن جهاز ضبط حرارة الجسم فى أى مخلوق هدفه النهائى ضبط حرارة الجسم عند الدرجة المثالية المناسبة لعمل الأنزيمات التى تضبط وتنظم العمليات الحيوية فى الجسم، ولذا فإن أى ارتفاع أو انخفاض عن هذه الدرجة معناه أن عمل هذه الأنزيمات يزيد أو يقل بما يؤدى إلى

عـدم انـتظام العـمليـات الحـيـوية فى جـسم هذا المخلوق.

فـالإِنسـان مـثـلاً لا يحـتـمل زيادة درجـة حـرارته عن ٤٢ْم، ولايحـتـمل أن تقـل عن ٣٥ْم، وتجـاوز الدرجـة العليا عـندكم بنى الإِنسان يـعنى سخـونة الجسم والموت، وتجاوز الدرجـة الدنيا يعنى بـرودة الجـسم وتـوقف العـمليـات الحـيـوية والموت. وأكـثـركم إِذا زادت درجـة حـرارتـه عن الدرجـة المثلى ولو بمعشار درجة توقف عن العمل وامتنع عن الطعام، فكيف تقوم أعضاء جسمى وجميع

خلاياى بأعمالها خير قيام فى هذا المدى الواسع من درجات الحرارة، والمفترض أن الأنزيمات لا تستطيع أن تقوم بعملها من بناء وهدم وعمليات حيوية متخصصة وهامة إلا فى حدود الدرجة المثالية الخاصة بكل مخلوق من المخلوقات، فكيف أتمتع أنا بهذه الميزة دون غيرى؟ وهل معنى هذا أن كل أنزيم من أنزيماتى كذلك؟ وكل عملية حيوية تجرى فى جسمى لها تميزها ولها تفردها؟ أنا شخصيًا أعتقد هذا، لكن نرجع الآن إلى موضوع قدرتى على تحمل

درجــة الحــرارة العــاليــة ، أقــول لكـم : إِنه مما يساعدنى على التخلص من درجة حرارة جسمى إِذا زادت عن ٤١ْم أن الطبقة الدهنية تحت جلدى رقيقة جداً وذلك لأن دهن الجسم عندى متجَمِّع فى سنامى وليست تحت الجلد ، لذا فإِن قُرْبَ الأوعية الدموية من سطح جلدى- دون عازل من الدهن- يسمحُ بإِشعاع حرارة دمى ونقلها إِلى الجو المحيط بسهولة ويُسر ، ودون حاجة إِلى إِفراز عرق للتبريد ، أو أن أرش الماء على جسمى كما يفعل الفيل أو أنزل إِلى الماء كما يفعل الجاموس

الذى لا يوجد تحت جلده غدد عرقية، فنظام التبريد عندى ذو تكنولوجيا عالية. وعلى فكرة، فإن معظم الوبر الذى يغطى جسمى ليحمينى من برد الشتاء يسقط من على جسمى بمجرد انتهاء فصل الشتاء، ولكن ما يتبقى منه فى الصيف يعزل جسمى عزلاً طيبًا عن الجو الحار من حولى، وعادة يلتف وبرى حول نفسه كالكور الصوفية الصغيرة، ليقلل بذلك من مقدار الحرارة التى يمتصها جسمى، ومع ذلك فإن سُمك هذه الفروة لا يحول دون تبخر القدر

الضـــرورى من العـــرق، نظراً لجـــفـــاف جـــو الصـحـراء، وبذلك تزيد إمكاناتى على تبـريد جسمى بأقل كمية من العرق، مع أن إخوتى من الخيل تفقد مقادير كبيرة من ماء أجسامها عرقًا، حتى تستطيع أن تتمكن من تبريد جسمها والاحتفاظ بدرجة حرارتها المناسبة، وهى أيضًا تحتاج إلى شرب الماء بكميات كبيرة، ولا تصبر على العطش طويلاً، وحتى فى سباقات الخيل يجب أن يتوقف بها راكبها ويريحها ويمسح عرقها، ثم يسقيها الماء بسياسة وحكمة،

ولكنى لا أكلف راكبى شيئًا من هذه العناية والرعاية، بل أنا الذى أقوم بحمله وخدمته والعمل على راحته. أنا لا أقول هذا غيرة من الخيل، ولكن ياسيدى لابد من قول الحق، ولابد من إعطاء الحق لأهله، وإلا قُل لى بماذا تفسر أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر بتجهيز راحلتين للهجرة الشريفة ولم يأمر بتجهيز فرسين مع أن الفرس أسرع منى وأخف، خاصة أن الكفار كانوا يطاردونه وكانوا مستعدين أن يضحوا بكل غالٍ من أجل إنهاء الدعوة الإسلامية ومنع

الهجرة النبوية الشريفة، إنما الاختيار المشرف لى من المبعوث رحمة للعالمين يؤكد أن له أسبابه الوجيهة.

وأذكركم أننى من سلالة هذه الراحلة المأمورة التى تشرفت بحمل رسول الله بقطع المسافة ما بين مكة والمدينة فى مسالك غير معتادة وفى طرق غير مرتادة، وهى تحمل رسول الله إلى العالمين؛ هداية الله إلى البشر أجمعين. صحيح أن جدتى هذه كانت مطمئنة برسول الله، وصحيح أنها كانت مأمورة، وما أدراك بأسرار الأوامر

التى أُمرت بها ، إلا أنها كانت تحكى لأبنائها أنه كثيراً ما انتابها الخوف ألا تستطيع أن تؤدى مهمتها الأداء الأكمل .

.. لقد كان عندها إحساس غامض بعظمة الرسالة ، وبجلال صاحبها ، لقد حملت جدَّتى صاحب الرسالة الشريفة ، ووصلت به صلوات الله وسلامه عليه إلى طيبة ، مدينته ، وفى المكان الذى بركت فيه بنى مسجده الشريف > .

لقد أوصاكم رسولكم الكريم ، المبعوث رحمة للعالمين ، بوصايا كثيرة ، أوصاكم بصلة الرحم ،

وأوصاكم بالاتفاق وعدم الاختلاف، وأوصاكم بأن تكونوا يداً واحدة على أعدائكم، وكان بكم عليه الصلاة والسلام رءوفًا رحيمًا، وأوصاكم أن تتراحموا فيما بينكم، وأوصاكم بالرحمة بالحيوان عمومًا وبى خاصة.

لا تنسوا أن الله سبحانه وتعالى أوصاكم بى وحذركم من أن تمسونى بسوء.

وأنا أعتقد أن أوامر ربى لكم برعايتى وعدم الإساءة لى، لأنى آية من آيات الله للمتفكرين، ومعجزة للناظرين المتأملين، فأنا خُلقت من

أجلكم، أنا عطية الله لكم، لقد وهبنى الله سبحانه وتعالى القدرة على العيش فى الصحراء الجرداء القفراء الموحشة، وفيها أستطيع أن أعطيكم -بسخاء- اللبن واللحم والجلد والوبر. لا تنسوا أننى مخلوق لكم، وأنا الذلول الصبور الحمول، وأنا الذى عبرت بأصحابى العرب البرارى والصحارى، ونقلتهم إِلى شتى أنحاء العالم، وأنا الذى نقلت الحضارة الإِسلامية إِلى خارج الجزيرة العربية، وأنا الذى عُدت إِلى أرض العرب ناقلاً لهم حضارات البلاد الأخرى، أنا

الصلة الحية بين حضارة الصحراء والحضارات الأخرى، أنا معجزة الصحراء، أنا رمز قدرة الأمة العربية على الحياة والاستمرار والعطاء فى أقصى الظروف وأحلك المواقف.. ولذا فإنى أرجو: قليلاً من الرعاية فى هذه الظروف القاسية وفى هذا الزمان الصعب.